

الرأي العام في الفضاء العمومي الجديد

أ.فرحات مهدي(جامعة وهران 1 أحمد بن بلة)

تحت إشراف أ.د. عبد اللاوي عبد الله(جامعة وهران 2 أحمد بن بلة)

مدخل لمفهوم الرأي العام:

الرأي العام هو تعبير الجماعة أو المجتمع أو الجمهور العام عن رأيه ومشاعره وأفكاره ومعتقداته واتجاهاته في وقت معين بالنسبة لموضوع يخصه أو قضية تهمه أو مشكلة تؤرقه وهو القوة الحقيقية في المجتمع والحكم الذي تصدره الجماهير على عمل أو حادثة أو نشاط في المجال الداخلي أو الخارجي المحلي أو العالمي وكذلك التعبير عن وجهة نظر الجماعة وعن اجتماع كلمة الجماهير وصوت الجماهير وإرادة الشعب. والرأي العام هو مجموعة الآراء التي يعبر عنها أفراد الجماعة إما من تلقاء أنفسهم أو بناء على دعوة توجه إليهم تعبيراً مؤيداً أو معارضاً لحالة محددة أو شخص معين أو اقتراح خاص ما يترتب عليه احتمال القيام بسلوك مباشر أو غير مباشر وكذلك هو محصلة آراء أفراد الجماعة ويمثل صورة من صور السلوك الجماعي تخضت عن تفاعل واخذ وعطاء بين أفراد الجماعة وبين الجماعة والجماعات الأخرى والرأي العام يحتاج جماعي يمثل الجماعة كلها معبأة للسلوك والعمل فيما يتصل بموضوع الرأي العام⁽¹⁾.

تسمح الديمقراطية بديوع وانتشار الرأي العام ولا تعمل هيئات في الخفاء، كما تعمل الديمقراطية على قيام حرية الفكر والاجتماع والتعبير عن الرأي بين أفراد المجتمع وذلك على عكس ما هو موجود في ظل الدكتاتورية وبالإضافة إلى ذلك فإن الحريات العامة وهي حرية الرأي وحرية الصحافة والكتابة وحرية الاجتماع والعمل وغيرها تعد من مكونات الرأي العام. ويعتبر وجود القادة الذين يتميزون بالقدرة على التأثير على الآخرين من العوامل الهامة في تكوين الرأي العام وذلك لما يتميزون به من قدرة على معرفة الرأي العام و معرفة بأحاسيس الجماهير وحينما تتوفر ثقة الجماهير في القادة فانه يصبح أداة قوية وفعالة في تغيير اتجاهات الجماهير والتأثير منهم وتكوين الرأي العام الذي يؤيد القضايا التي يدعو إليها.ويقول الاستاذالبجاستاذ الرأي العام الأمريكي: "إن الرأي العام ينتج عن تفاعل أفكار الافرادفيأي شكل من أشكال الجماعة. أما بلمرفيقول: "إن كثيراً من التفاعل الذي يتكون خلاله الرأي العام يحدث نتيجة لتضارب آراء الجماعة وأوضاعها".

إن التطور التقني في مجال الاتصال صاحبه العديد من الممارسات "الجديدة" في جل مجالات الحياة اليومية للفرد داخل المجتمع، فالانترنت أو كما يسميها البعض "بالشبكة" ومع زيادة انتشارها أو "دمقرطتها" في الجزائر أضحت الوسيلة "الغامضة"، غموض يمكن لنا استقراء عبر القدرات غير المتناهية لهذه الوسيلة، من حيث الانتشار و سرعة التدفق و "الحرية"...، مقارنة بالوسائل "التقليدية"، وكذا قدرتها السياسية في تكوين "الرأي العام" أو توجيهه أو في إرساء ثقافة سياسية أو "وعي سياسي" جديد بالجزائر. تغلغل العمل السياسي عبرالانترنت بما في ذلك الشبكات الاجتماعية جعل منها "فضاء عمومي جديد" تنشط فيه الأحزاب السياسية لعرض برامجها وسياساتها بطريقة تتأقلم أو "تخضع" لمعايير الوسيلة لاستقطاب الجماهير و"التعبئة الشعبية".

إن تغلغل الانترنت في بيوت الجزائريين قد يعطي للباحثين فرصة جديدة أو إضافية للتوصل إلى "الحقيقة وكذا فتح آفاق جديدة للبحوث في جميع المجالات وبخاصة دور معاهد سبر الآراء و التي أصبحت مرجعا مهما للمسارات السياسية في الدول "الديمقراطية" بقياس "درجة حرارة الرأي العام" في ظل الويب 2.0⁽²⁾.

الرأي العام: اشكالية مفهوم؟

مفهوم "الرأي العام" من المفاهيم التي يصعب على الباحثين تحديدها تحديدا دقيقا، وتؤكد الدراسات على صعوبة وضع تعريف دقيق محدد "للرأي العام" ويذهب بعض الباحثين إلى أن القدرة على قياس "الرأي العام" تفوق القدرة على تعريفه وتطويعه، فعلى الرغم من أن المفهوم ظهر في القرن 18م فإنه لم يُعرف بعد بشكل محدد أو مرض، فالرأي العام من "الصعب وصفه، ومن غير الميسور قياسه ومن المستحيل رؤيته" ورغم كل هذه الصعوبات فإن قوة الرأي العام لا يمكن تجاهلها في أي مجتمع.

تميل التعريفات الحديثة للرأي العام إلى الاستناد إلى مجموعة من الأبعاد والمتغيرات في صياغة التعريف كمدى ارتباط الرأي العام بقضية ذات صبغة عامة أو جماهيرية، درجة ظهور الرأي العام وعلايته، درجة الموافقة المطلوبة، ونسبة الموافقة التي تسمح بتكوين الرأي العام، الأثر الناتج عن الرأي العام، مدى الارتباط بين الرأي العام والمعتقدات والقيم، . أما "ألبيج ALBIG" في كتابه "الرأي العام الحديث" فيقول عنه "أنه تعبير عن موضوع معين يكون موضع مناقشة من جماعة ما"، ويعرفه الدكتور "عبد الرحمن عزي" بأنه: «مجموعة آراء الأفراد حول موضوع ذي أهمية عامة (أي الآراء) التي في مقدورها ممارسة التأثير على مواقف الأفراد والجماعات وعلى سياسة الحكومات».

إنّ تعقيد الرأي العام يكمن في تحديد مفهوم له يتفق عليه الجميع، وهذا التعقيد نعتبره بالأمر الطبيعي وذلك لعدة عوامل من أبرزها أنه، أي الرأي العام، له علاقة بطبيعة الفرد والإنسان الذي من سماته المعروفة التعقيد من ناحية التنشئة الاجتماعية ومن الناحية الفطرية والتنوع الثقافي، فمن هذه المعطيات نستطيع ونسب متفاوتة تفهّم التعريفات الكثيرة التي أعطيت لمفهوم "الرأي العام" فهو ليس في منأى عن البيئة والمضمون اللذان يتكوّن فيهما

إنّ تعريفات المفكرين لا يمكن فصلها عن "البيئة الاتصالية" التي جاءت فيها، لأن تعريف أي مفكر لمفهوم الرأي العام يكون حسب الوسائل الاتصالية التي نشأ منها والتي تمثل بيئته الطبيعية، فزمن الكتب ليس هو زمن التلفزيون وليس هو زمن الانترنت وليس هو زمن الهواتف النقالة "الجيل الثالث"، ووسائل الاتصال لها، وحسب ما نراه، دور كبير في تحديد مفهوم الرأي العام كذا في ممارسة الجمهور وفي كيفية استعمال المعلومة وفي أي إطار وعبر أي حامل Support أو وسيلة إعلامية.

يرى "هابرماس" أن مصطلح الرأي العام لا يتوافق مع مصطلح الإشهار لأن الرأي العام لا يمكن لنا التوصل إلى غايته المثالية بنفس السهولة التي نجدها في الإشهار، وأن الجانب النقدي للإشهار مختلف من حيث وظائف المراوغة أو التضليل "Manipulation"، إلى جانب الاختلاف القائم من حيث الظروف الاجتماعية.

"الرأي العام" هو خيال القانون الدستوري، حيث أصبح ملك مجموعة بعض الهيئات السياسية ومن هذا المنطلق ظهرت بحوث أمبريقية في مجال العلوم الاجتماعية لنقد هذه النظرة أو البعد للتوصل إلى إثبات وجود "رأي عام" خارج الرؤية المؤسساتية الدستورية. كان مصطلح "الرأي العام" بالنسبة للمذهب "الليبرالي" في أواسط القرن 19 مركز إشكال، ولكن بداية من 1875 صار هذا المصطلح يحمل معه الكثير من الشكوك واللبس، ومثال ذلك ظهور الكثير من المفكرين الذين أعطوا تعريفات أو بالأحرى حاولوا إعطاء تعريف لمصطلح الرأي العام.

يرى "ف. فون هولتزنندروف F.vont Hötendorf" في كتاب بعنوان "طبيعة وقيمة الرأي العام" أن الرأي العام أصبح شعراً يتداول وذلك بغرض إرضاء الجمهور وجعله يخضع لهذا المنطق وذلك فيه كبت للمبادرة الشخصية التي قد تحاول معارضة هذا الرأي.

تناول "هابرماس" مصطلح الرأي العام في دراسته لفترة القرن الثامن عشر (18) في أوروبا والتي شهدت بروز الطبقة المتوسطة، وعرفت تراجعاً في دور الكنيسة مما أدى إلى بروز "نقاش عام في الأماكن العامة" لتأييد أو معارضة مواضيع في الشأن العام لاسيما في دول إنجلترا، فرنسا وألمانيا في الصالونات الأدبية والمقاهي. تلكم الأماكن سماها "هابرماس" بـ "الفضاء العام للمجتمع" والذي كان يتّسم بالحرية، حيث كانت تقرأ القصص والروايات في البداية ثم الصحف والمجلات، وكان من بين أسس هذه المنتديات: الانفتاح العام، النقاش العقلاني، تجاهل الوضع الاجتماعي للحاضرين، وذلك بنية خلق جو لحل القضية المطروحة أي بعث "الرأي العام". يؤكد بهذا الصدد "هابرماس" أن الفضاء العام هو مصدر "الرأي العام"، وفي الوقت ذاته يُنبّه إلى أن هذا المفهوم قد يُوجّه لعدة أسباب، من أهمها المصلحة الطبقية وغياب الديمقراطية.

ينطلق "بورديو" من فكرة أن التلفزيون والصحافة عامة تشكل راهناً أداة للقمع الرمزي نظراً للمستوى الثقافي أو المعرفي المتدني للمشاهدين الذين يميلون إلى تصديق ما يُعرض عليهم بعامة من خلال تطبيق وسائل إقناعية تستميل العاطفة. يأمل "بورديو" في أن تتحول الصحافة إلى أداة للديمقراطية المباشرة عن طريق رفع المستوى العلمي للمشاهدين والقراء وتقوية استقلالية الصحافة عبر إدراك الأولويات التي تعمل على ضرب تلك الاستقلالية، والأولويات غير المرئية التي تُمارس الرقابة من خلالها، ذلك ما يجعل من الصحافة أداة عظيمة لتثبيت النظام الرمزي (تواطؤ المتلقين والذين يمارسونه). وهكذا تغدو وسائل الإعلام أداة لخلق الحقيقة وللتحكيم الاجتماعي والسياسي، وليس كما

يُدعى، أداة لتسجيل الواقع. وهو ليس ملائماً للتعبير عن الفكر أو الرأي؛ إذ يمنح أهمية للتفكير السريع وللغذاء الثقافي السريع المقترن بأفكار مسبقة. يُقدّم "بورديو" حول هذا الموضوع أفكاراً للتحديد وللتحقق منها بوصفها أموراً معقدة جداً لا يمكن معرفتها إلا من خلال عمل أميريتي مهم، ارتكازاً على ملاحظات من الواقع. كما أن الأفكار المتقدمة تتعلق بالمجتمعات الغربية الأوروبية عامة والمجتمع الفرنسي خاصة. ويبرز لدى "بورديو" اتجاهان: "علمي" و"إصلاحي"؛ ويتمثل الأول في موقف الباحث السوسيولوجي الحيادي وهو الغالب والأساسي الذي يعتمد على مبادئ سوسيولوجية أساسية، مثل: فهم الظاهرة الاجتماعية كما هي في الواقع أي من دون الانطلاق من مفاهيم مسبقة، ثم شرحها بأسباب اجتماعية مع التركيز على العاملين الاقتصادي والثقافي، باعتبار أن الواقع مقياس للحقيقة، مما يؤدي إلى تقسيم العالم الاجتماعي إلى حقول مستقلة نسبياً، وكشف المستور، وكذا استخدام بعض المفاهيم (العنف الرمزي، ميزان القوى الرمزي، الهيمنة الرمزية والوزن الرمزي).

يرى "بيار بورديو" أن دور المجتمع يزداد في إمكانية النقاش العقلاني، بالرغم من أن الرأي العام يدل على مسلمتات تتجذر في التكوين، إلا أن هناك طيفاً متنوعاً بين حدين أحدهما "أورثوذكسي" والآخر مناقضه، ويؤكد أيضاً أن الطبقات المتوسطة كانت أكثر استعداداً للمشاركة في النقاش السياسي ولديها رأس المال الثقافي والاقتصادي الذي يُمكنها من القيام بالتغيير.

تُشكّل الصحافة عند "بورديو" أحد أهم مكونات الفضاء العام "المجال الصحفي Journalistic field" وأهم حلقة وصل بين المجالات المختلفة في المجتمع، إذ يعتمد المجال الصحفي على مجموعة مُسلّمات ومعتقدات تتجاوز الاختلافات في الموقع والرأي؛ حيث لا وجود للصحافي المحرر داخل المجال الصحفي، فتبعاً لتهيئته في "Habitus"، وهو مفهوم أساسي لدى "بورديو"، تتشكل ميوله ونظرته للعالم. يُمثل "بورديو" هذا المجال من حيث الانتشار "بالدائري" أي يقرأ الصحفيون لصحافيين آخرين ويستقون الأخبار من مصادر واحدة، وقد بدأ تكوين المجال الصحفي في فترة مقارنة للفترة التي لاحظ فيها "هابرماس" تشكّل الفضاء العام الذي اعتمد على الصحافة كُموّن أساسي⁽³⁾.

الرأي العام بما يمثله من ارتباط بتفضيلات الأغلبية وما يُحقّقه من قبول مؤسسات المجتمع باعتباره تعبيراً عن اقتناع ورضا لرأي الأغلبية، وهو ما يجعله مقبولاً لدى النخبة وفي حالات عدم موافقة الطبقة السياسية على هذا الرأي يكون هناك احترام له وهذا لعدم قطع الصلة أو العلاقة بين الرأي العام والنخبة السياسية أو ذوي القرار في السلطة. فالرأي العام يمكن له أن يتكوّن من أفراد مجتمع غير منظمين أو أفراد مجتمع داخل تنظيمات معينة كأعضاء مؤسسات سياسية وسيطة مثل: النقابات، الجمعيات، الاتحادات والتي يطلق عليها عادة تعبير النخبة الوسيطة باعتبارها تمثل حلقة وصل بين النخبة السياسية الحاكمة والجماهير غير المنظمة.

إن الرأي العام الجماهيري والنخبوي لكل منهما خصائص ولا يمكن لنا غض النظر عنها وخاصة في الدول غير الديمقراطية التي قد تجد أكثر سهولة في التحكم في الرأي العام النخبوي وذلك بالتحكم بالنقابات أو الجمعيات وبشقي الطرق المتاحة للسلطة من قمع أو تعيين رؤساء جمعيات ونقابات مناوئين للسلطة، في حين أن الرأي العام الجماهيري تجد السلطة أكثر عناء في التحكم فيه رغم أن سيطرتها على وسائل الإعلام وخاصة الثقيلة منها قد تساعدها في ذلك، غير أن هناك "Une marge de manœuvre" للجمهور وذلك عبر التكنولوجيات الحديثة لوسائل الاتصال الفني قد تفتح له المجال لرؤى جديدة غير تلك المفروضة من طرف السلطة السياسية الحاكمة.

إن التقسيم في الرأي العام إلى رأي عام نخبوي وآخر جماهيري يجد خلافاً حاداً بين الباحثين فمنهم من يرى أن دور الجماهير والرأي العام يعد أساساً في العملية السياسية ويشير إلى الدول الديمقراطية حيث تمثل الانتخابات والتصويت فرصة أساسية للرأي العام لاختيار القيادات السياسية أما البعض الآخر من الباحثين فيذهب إلى التركيز على النخبة وليس الجماهير معتبرين - حسب رأيهم - أن النخبة هي القوة المهيمنة والتي قد تستجيب لمطالب الرأي العام بدون اللجوء إلى الجماهير التي تفتقر إلى المعرفة والاستنارة والفعالية، فاعتبروا أن النخبة هي تلك القلة التي تتخذ القرارات في النظم السياسية بوجه عام ومن ثمة تُهيمن على الجانب الأكبر من القوة السياسية في المجتمع.

مفهوم "الرأي العام" عند "فيردينون تونيز" Ferdinand Tonnies

لا يزال النقاش ذو شجون بين الباحثين حول مفهوم "الرأي العام"، نقاش كانت بداياته في القرن العشرين وبالتحديد مع كتابات الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني "فيردينون تونيز" «Ferdinand Tonnies»، والذي يعتبر من مؤسسي علم الاجتماع في لألمانيا رفقة ماكس فيبر،

من خلال مؤلفه « Communauté et société » 1887 الطبعة الاولى التي لم تلقى رواجاً الى بعد اعادة نشر الكتاب سنة 1912 ليليه كتاب « Critique de l'opinion publique » سنة 1922 .

فيردينون تونيز من خلال أبحاثه اشتغل حول مفهوم "الروابط الاجتماعية" وحاول الفصل بين المجموعة والمجتمع «communauté» et «société» اللذان شكلا لدى علماء الاجتماع في بداية القرن العشرين محور نقاش حتى على مستوى النقاش العمومي «débat public» ، والذي تمحور حول فقدان أو تحول الروابط الاجتماعية «Perte ou transformation du lien sociale» ليقدّم تونيز مقارنته والتي مفادها أن الروابط الاجتماعية لا تفتقد بل تأخذ اشكالا أخرى ويحددها تونيز: الروابط الشخصية الدائمة والتي قدمها تحت مصطلح "المجموعة" تضم: (الاسرة- الجيران) وبالمقابل الروابط غير الشخصية والتي شبهها ب"الوظيفية" والتي تتميز بعدم الديمومة والتي سماها ب"المجتمع" والتي تتجسد عبر الدولة والنظام الرأسمالي المعتمد في المدن الكبرى وما ينجم عنها من متطلبات استهلاكية (السوق، الأمة، العالم الافتراضي). انطلاقاً من هذه الثنائية يرى تونيز أن هيمنة المجتمع على حساب المجموعة يؤدي الى نتائج خطيرة، فقدان الروابط على حساب المجتمع يؤدي الى حالات الوحدة والتفرد لدى الفرد داخل المجتمع. ليصبح الفرد رهينة مجال مغلق تفرضه عليه سيورة تطور المجتمع الذي بدوره يمارس و بطريقة منظمة نوعاً من الهيمنة.

القيام بإسقاط زمكاني نستنتج أن مقارنة "تونيز" حول الروابط الاجتماعية لا تزال حديث الساعة من خلال مختلف المحاضرات والنقاشات لدى المفكرين حالياً على خلفية العولمة من جهة كفلسفة استهلاكية جديدة وعلى خلفية التطورات التكنولوجية التي نعيشها: web2.0، العالم الافتراضي، الشبكات الاجتماعية، المدونات، وسائل الاعلام الحديثة وتأثيرها على المتلقي. كلها رهانات جعلت من الباحثين اعادة النظر في العديد من "المسلمات" والاعتماد على "بارادغمات" جديدة في تحليل ومقارنة الظواهر.

في كتابه Critique de l'opinion publique «ركز تونيز على مخطط ميتافيزيقي مبني على "الرغبة" «la volonté» في نقده لمصطلح "الرأي العام"، ويعتبر أن الوظائف الاجتماعية لها وقعها على الفرد، على طريقة تفكيره وتعامله مع مختلف الحالات وعليه فعالم الاجتماع حسب تونيز عليه دراسة "الحدث الاجتماعي" كمتغير رئيسي "للرغبة الاجتماعية" منطلقاً من مقارنة "دوركاهم" (الضمير الجمعي"، وعليه فإن الدين حسب "تونيز" يمثل رغبة "المجموعة" أما "الرأي العام" فهو يمثل رغبة "المجتمع" اي "أن الرأي العام أصبح المماثل اللائكي والحديث للدين"⁽⁴⁾ فمفهوم الرأي العام ظهر مع تطور مفهوم الحداثة البورجوازية وهنا اشارة للفيلسوف الالماني "هابرماس" .

هابرماس: الفضاء العمومي

أخذ يورغن هابرماس Jürgen Habermas 1929 مفهوم الفضاء العمومي (espace public) عن كانط E.Kant الذي قال به و تم استعماله بكثرة في مجال التحليل السياسي منذ سبعينيات القرن الماضي، فهو الفضاء الواسطي الذي تكوّن تاريخياً في زمن الأنوار بين المجتمع المدني والدولة⁽⁵⁾، وهو المجال المفتوح للمواطنين لتقديم جميع آرائهم حول القضايا ذات الاهتمام المشترك لتكوين رأي عام.

مع بداية القرن التاسع عشر بدا الفكر الاوربي في الاشتغال على موضوع "الفضاء العمومي" وذلك على خلفية الاتجاهات المهمة آنذاك عبر تحليل السلطة التي مارسها المؤسسات الرسمية في سعيها لبسط نفوذها عبر القول بمركزية سلطتها وشد الفرد إليها لأجل احتوائه.

يعرف هابرماس الفضاء العمومي البورجوازي كفضاء لأشخاص خاصين مجتمعين على شكل عموم، هؤلاء الأشخاص يدافعون عن هذا الفضاء العمومي المنظم من طرف السلطة، وهم في نفس الوقت ضدها، وذلك من أجل نقاش القواعد العامة للتبادل في ميدان تبادل السلع والعمل الاجتماعي (المجال الذي بقي خاصاً وأهميته ذات بعد عام)، وسيط هذا التعارض بين الفضاء العمومي والسلطة هو وسيط أصلي لا سابق تاريخياً، إنه الاستخدام العمومي للعقل .

يرى، بالمقابل، "جايمس ميلتون" أن الفضاء العام البورجوازي ناجم عن طورين طويلي الأمد: أولهما "نشوء الدولة القومية" وثانيهما "ظهور الرأسمالية"؛ حيث وجدت السيادة تعبيراً رمزياً لها في ما يدعوه "هابرماس" بـ "العلنية التمثيلية Representative publicness" لطقوس واستعراضات البلاط. كما أبدى "هابرماس" خشية من النزعة الجديدة في دمج الإعلام بالإعلان.

لقيت رؤية "هابرماس" للفضاء العام كثيراً من الانتقاد من طرف العديد من الباحثين خلال الندوات والدراسات التي أجريت بهذا الصدد، ولعل أبرز تلكم الانتقادات ما يتعلق بإمكانية استعمال "الفضاء العام" كأداة ووسيلة للتسلط بدل أن يكون مثلاً للتحرر؛ يضاف

إليه مصطلح "الرأي العام بالإجماع"، حيث يُسَجَّل بعض التحفظ على ما يراد بـ "الإجماع" بالنظر إلى عدم تمثيله لجميع طبقات المجتمع، أي الميل إلى رأي طبقة دون رأي أخرى، فضلا عن إقصاء العنصر النسوي فيما يُدعى بـ "الإجماع" وكذا اختلاف بُنى المجتمع وإشكالية كيفية تحديد الجمهور العام.

الهوامش:

1. محمد منير حجاب : أساسيات الرأي العام، دار الفجر للنشر والتوزيع، ط2 ، القاهرة، 2000.
2. Loïc Blondiaux, La Fabrique de l'opinion, une histoire sociale des sondages, Paris, Seuil, 1998.
3. Pierre Bourdieu, *Les temps modernes*, 318, janvier 1973, pp. 1292-1309
4. Ferdinand Tönnies, *Communauté et société. Catégories fondamentales de la sociologie pure*, nouvelle traduction et présentation de S. Mesure et N. Bond, Paris, PUF, 2010.
5. Dominique Wolton, *l'espace public*, cahiers français, N° 218, Mai - Juin 1997, page 66.